الوطن

فلسفة «حدس الاتصال» وفكرة «الزمن» وانعكاساتها في العمارة العربية «الإسلامية»

■ البحث العلمي والأكاديمي العربي لا يزال يتحرك في إطار مجموعات من «المقدسات» والخطوط الحمراء، والدراسات "العتيقة"

د. وليد أحمد السيد
sayedw03@yahoo.co.uk

■■ ثمة قدر لا يستهان به من الدراسات البشرية الفلسفية منها والإنسانية التي أعملت العقل والمنطق في مفهوم وماهية "الزمن" لما له من ارتباط وثيق الصلة بالثالوث (الإنسان والمكان والزمان) بحيث غدا موضوعا محوريا في الفلاسفة، وبالذات للمؤرخين والمنظرين في التاريخ البشري. وبات تقسيم الزمن، وبالتالي متعلقات الوجود والكينونة الإنسانية، إلى ثلاثة أقسام: ماض ذهب وانقضى لا يعود مطلقا، وحاضر يموت كل لحظة متحولا إلى ماض، ومستقبل يتحول على الدوام إلى حاضر فماضٍ. وهذا النهر الدافق من "الجزيئات الزمنية"، من لحظات وثوان إلى حقب، جرى منذ الأزل بهذا الصورة وهذه الكيفية والإتجاه من الماضي للمستقبل ولم تعرف البشرية أنه جرى بغير هذا الإتجاه.■■

■ الفلسفة الحديثة تميزت بالجرأة وكانت ثورة على الفلسفة الكلاسيكية التي قامت على مفهوم "حدس الاتصال" (Induction). فمع مطلع القرن التاسع عشر بزغت ظاهرة بين العلماء والفلاسفة والمنطقيين، والتي كرسها (Karl Popper) حين طرح مداخله الفلسفية الشهيرة التي نقضت حدس الاتصال، والتي تمثلها فكرة أن شروق الشمس كل يوم، تبعا لمنطق "حدس الاتصال"، لا ينفي حقيقة أنها قد لا تشرق يوما ما، مما يترك مجالا للشك العلمي والمساءلة في إمكانية حدوث العكس. فقد أعلن (Popper) في مقدمة كتابه الشهير
(Objective Knowledge: An Evolutionary Approach)
والصادر عن جامعة أكسفورد، حل معضلة "حدس الاتصال" التي حيرت الفلاسفة طويلا. ففي السطر الأول من الفصل الأول من كتابه يكتب:" أعتقد بأنني حللت معضلة فلسفية محورية؛ هي مشكلة حدس الاتصال"! ليشرع من خلال فصول الكتاب في برهنة أطروحته الفلسفية برصانة ومنطقية أسست بشكل غير مسبوق لجدلية أساسية في المنطق والفلسفة بتعريفه لما عرف بعلم الفلسفة بـ "المساءلة والتمحيص والنقض" (conjecture and refutation)، والتي تطال جميع مسائل العقل البشري. أهمية أطروحة (بوبر) تكمن في أنها وللمرة الأولى في التاريخ الإنساني وضعت ما كان يعد بمثابة "القانون" على طاولة النقد والنقض، بجانب "الفرضية" و"النظرية" سواء بسواء. "فالقانون" كان يعلو تماما على النقض في البحث العلمي الكلاسيكي، لكن فلسفة (بوبر) في نقض "حدس الاتصال" فتح الباب على مصراعيه للتأسيس لنهضة الغرب في البحث العلمي الحديث وأكسبته قفزات نوعية. فأهمية "المعرفة الموضوعية" التي أسس لها "بوبر" برصانة، تكمن في أنها قدمت محركات الأطر التي تحرك فيها البحث العلمي الغربي بما لم يعرف حدودا منذئذ. وبمقابل هذا التطور العلمي المنهجي في تبني منهجية "الدحض والنقض"، أو (conjecture and refutation)، نجد البحث العلمي والأكاديمي العربي ما يزال معتكفا في خدره راقدا في سباتة عميقة يحلم بدفء مجموعات من الدراسات الكلاسيكية التي لا تقبل النقد أو المساءلة. فهو، وللأسف يتحرك في إطار مجموعات من "المقدسات" والخطوط الحمراء، والدراسات "العتيقة" التي لا يجوز إعادة البحث فيها أو مساءلتها، مما فرض قيودا و"تحجرا" فوق تقوقع إبتدائي أصلا. ومن هذه الدراسات، مثلا، تلك التي تدور في فلك ما سمي بالمدينة "الإسلامية" وارتباطاتها بالشريعة، مما يعتبر مجرد التلميح بنقدها كمن يهاجم الشريعة ذاتها! ما يعنينا هنا هو التأكيد على أن إعادة دراسة ونقد ما "يظن" أنه من المسلمات، كان ويظل هو الطريق الأوحد تجاه التطور في البحث العلمي الغربي، من خلال وضع "النظريات" الأكاديمية المختلفة على طاولة البحث والدرس والنقاش. فليست هناك مسلّمة في البحث العلمي بالمنظور الغربي الذي يتقدم العالم النامي بحقب "ضوئية". فبقدر ما تعمل العقول في مساءلة الواقع بقدر ما تتفتح آفاق لا حدود لها من العلم والمعرفة مما يتخطى الجمود والتقوقع الفكري، وهو للأسف ما يتمتع به العقل العربي الأكاديمي والبحثي وبامتياز اليوم.

وانطلاقا من تلك الأطروحة المنهجية ونظرا لضيق المساحة فسنعرض هنا فكرتين أساسيتين ذات علاقة بحدس الاتصال التقليدي وأطروحات "نوعية" في التفكير المنهجي "باللامفكر فيه": الأولى تتطرق لفلسفة مفهوم الزمن، كأحد أبرز المعضلات الفلسفية وتطبيقات "حدس الاتصال" الكلاسيكية ومتعلقات "المعرفة الموضوعية". والثانية في توضيح فكرة الزمن وتطبيقاتها في العمارة العربية الإسلامية. وهنا يجدر التمييز ابتداء بين مفهوم الزمن "كمعطى جامد" للدلالة على الحقب أو العصور البشرية وبين الزمن "كدلالة حركية" لنهر جار من الجزيئات الزمنية الدافقة. فالمفهوم الأول وصفته الدراسات الإنسانية والتأريخية، أما الثاني فهو محل الإشكالية والذي وقفت عنده عقول المفكرين والفلاسفة، وهو الذي يهمنا بحثه هنا. فما هو الزمن، بمفهومه الحركي؟

فكرة الزمن فلسفيا تطرحها مقاربة أساسية تعتمد كلا من المنطق والعقل والنقل. فمعروف بدهيا، وبحسب المناطقة ومنهم إخوان الصفا، أن الماهيات في الكون تقسم إلى نوعين: حسية ولا حسية. أما الحسية فتقسم لقسمين: "حسي محض"، يتحدد ويعرف بدلالات مادية فقط، ومثاله الجماد. و"حسي خليط" من المادة والروح، ومثاله المخلوقات الحية. وأما الماهيات "اللا حسية" فلا يمكن رصدها إنما يمكن تبين آثارها، وغالبها يتحدد بدلالة الحسيات، ومثالها ضوء الشمس أو الظل أو الحيز الفراغي، وفضلا عن ذلك هناك ما يعرفه العلم الحديث "بالمادة السوداء" أو (Dark Matter) والتي تملأ الفراغ الهائل بين المجرات والكواكب ويزخر بها الكون ولم يجد العلم بعد وسيلة لرصدها أو تبيانها. ويتبع هذه الفصيلة ماهيات تتحدد بدلالة "أفعال" الحسيات وليس بالحسيات ذاتها، ومثالها البيئات الإجتماعية والثقافية والدينية والسياسية – التي تتحدد بـ"أفعال الحسيات الخليطة" ـ البشر، أو ما يتحدد بـ"أفعال الحسيات المحضة"، ومثالها "فعل" دوران الأرض (حسي محض) حول الشمس وحول نفسها، مما ينتج عنه "الزمن".

والتساؤل المنطقي الذي يطرح نفسه هو: ماذا يحصل لو توقفت الكواكب عن الدوران؟ هل يتوقف الزمن أم يموت أم ما الذي يحصل بالضبط؟ وهل الكواكب هي فعلا "علامة" دالة على الزمن أم أن الزمن هو كينونة مستقلة بذاتها تكشفها الكواكب بدورانها ولا تتحكم بأصل كينونتها البتة؟

للبحث عن الإجابة نجد أطروحة في المنطق، من مزيج من العقل والنقل، تعرّف الزمن كماهية مستقلة عما حولها، لكن "تدل" عليها أفعال الكواكب ودورانها فقط ولكنها "لا تشكله" مطلقا (ولا ينعدم بدونها). تماما كما تدل الشمس على الظل، فالظل كائن مستقل موجود بالشمس وضوئها وبغيرها، ويدلِ عليه قول الحق تعإلى (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦)) الفرقان. وانظر إلى التعبير القرآني الدقيق (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)، فالشمس "تدل" عليه ولا "توجده"، مما يوحي بأنه موجود فعلا لكنه غائب عن العيان. وضمن هذا الإطار يناقش فيلسوف ومنظر "مورفولوجيا الحيز الفراغي الحضري" البروفيسور (Bill Hillier) بجامعة لندن، وهو كان مشرف كاتب هذه السطور، أن الفراغ أو الحيز الفراغي هو موجود بالجدران المحيطة وبدونها. وهذه الفرضية قامت عليها نظرية شهيرة في التخطيط والتصميم المعماري والحضري هي نظرية (Space Syntax) والتي دحضت المقولات السابقة المغلوطة بأن الحيز الفراغي اللامحسوس "مرتبط وجوده" بما حوله للدلالة عليه، فإذا اختفت هذه الماديات من حوله انعدم وجوده!! وفي الحقيقة تذهب هذه النظرية لربط الحيز الفراغي باللاحسيات من البيئات الاجتماعية والثقافية والسياسية أكثر من ربطه بالمحسوسات من المكان والجدران. ويناقش الفيلسوف (Hillier) هذه الأطروحة برصانة حيث يجادل ساخرا ممن يزعمون، ومنهم الفيلسوف الإنجليزي (Roger Scruton)، أن الفراغ هو متحدد بما حوله من الجدران فإذا زالت الجدران "ساح" الفراغ وانساب وغاب وانعدم!! ومن هنا ينشئ (Hillier) نظريته في هذا المضمار على عقيدة أن الفراغ هو مستقل بذاته ككينونة، ويمكن الدلالة عليه باللاحسيات وبالذات العوامل الإجتماعية مما يعطيه صبغة وارتباطا بالبيئة الإجتماعية أكثر مما تفعل الحسيات والحوائط والجدران. بل إن الأخيرة إنما هي مؤشرات ودلالات لقراءة العلاقات الفراغية وربطها بالمؤثرات الاجتماعية والثقافية التي أفرزتها، وقراءة العقلية التي كانت وراءها، وليست بحال محددا لها، فهي وعاء ومؤشر لقراءة ورصد الآلية وليس لتحديد الكم الناتج فقط.

وبالرغم من هذه الاستقلالية "النسبية" للزمن، بحسب هذه الأطروحة، إلا أنه يمكن ربطه ورصده أو رصد آثاره بالمحسوسات، وبالمنطق فما هو مرتبط، ولو نسبيا، بالمحسوس الفاني فلا بد أن يفنى بالضرورة يوما. ومن هنا يمكن النظر للدفق الزمني كل لحظة على أنه (موت وفناء للثواني). وانطلاقا من هذا المنطق يمكن النظر للزمن على أن وظيفته مرجعية لجميع ما حوله ممن في عالمه فقط. ولذلك نحن كثيرا ما نخطئ إذ نعمد إلى مد حدود "الزمن" إلى أبعد من حدود العالم الذي تشكل فيه والذي خلق لأجله ولغاية واحدة من أجلها خلقت الحسيات التي تشكله وهي الكواكب ودورانها وذلك (لتعلموا عدد السنين والحساب)، أي أن الزمن ما هو إلا "مسطرة" و"آلة" لقياس "الدفق النهري الجاري للثواني والدقائق والساعات". كذلك نخطئ أيضا بنسبة التقادم أو الفناء للزمن ذاته. فالزمن "كمسطرة قياسية" ليس مسؤولا عن شئ إنما هو وسيلة وأداة مرجعية للاستناد إليها فيما يخص "الدفق" الوقتي الذي صمم ليجري من الماضي عبر الحاضر إلى المستقبل. تماما كمن يخطئ بنسبة ارتفاع المد بأمواج النهر إلى المقياس النهري المستعمل لذلك. أما التقادم والهرم والهلاك فمرده البنية التكوينية البيولوجية للأشياء في "عالم الخلق"، أو عالم الناسوت خاصتنا، والتي تجعلها تتآكل مع مرور الزمن إما بفعل عوامل التعرية، وإما ـ وكما في حالة الإنسان وكما أثبت العلم الحديث، بسبب مرور الدم في الأوردة والشرايين على مدى السنين مما يجعلها عرضة للتآكل تماما مثل المواسير بالمبنى المعماري مما يكسب البشرة طابع التقادم والهرم. ولذلك فقد عاب القرآن الكريم على الجاحدين الكافرين نظرتهم للحياة والموت في الآية الكريمة (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ؟ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) الجاثية الآية (٢٤)). فالدهر ليس هو "الفاعل" في الموت، بظنهم وزعمهم، بل هو مقياس جريان الدفق النهري للثواني وليس سببا أو مسببا في معادلة الموت والحياة البتة.

ومن هنا فالزمن في عالمنا يتشكل بإحداثيات حسية هي كواكب ونجوم وأفعال ـ هي دورانها حول بعضها، وسرعة الدوران هذه تحدد "وحدات الزمن" القياسية، وهي الغاية من خلق الزمن. فدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس بسرعة معينة "تخلق" الزمن الأرضي. بيد أن "الزمن" كأداة قياسية إنما هو متفاوت التدريج، إذ هو "أزمنة" ـ وإن شئت فقل "مساطر قياسية" متعددة، تماما كما أن "المكان" هو "أمكنة". فالزمن على الأرض ليس هو ذاته على عطارد أو المشتري أو الزهرة الذي يدور حول نفسه ببطء وتكاسل شديد إذ يستغرق ٢٤٣ يوما أرضيا ليكمل دورة واحدة حول نفسه، وهو أطول من الوقت الذي يستغرقه للدوران حول الشمس، بمعنى أن اليوم على الزهرة أطول من السنة. وأقرب هذه الكواكب لزمننا الأرضي هو المريخ إذ أن اليوم المريخي هو ٢٤ ساعة و٣٦ دقيقية أرضية وله فصول أربعة مشابهة لفصولنا الأرضية بسبب درجة ميلان محوره عن الشمس المشابهة لدرجة ميلان أرضنا. وبما أن الأيام على كواكبنا المحدودة التي تنتمي لشمسنا ليست واحدة وهي التي تحدد الزمن في كل مكان منها بدرجة أساسية فمعنى ذلك أن الزمن وفكرته الفلسفية معتمدة اعتمادا كليا على هذه الكواكب الفانية يوما ما، وما يعتمد على ما هو فان فلا بد أن يكون فانيا أيضا بالمنطق. بمعنى أن "الزمن" الأرضي الذي نعرفه هو مخلوق يموت كل لحظة، أفلا تموت الثواني على الدوام منذ زمن آدم عليه السلام. ومن هنا نستحضر الحديث القدسي الذي معناه (فإني كتبت الموت على كل ما هو تحت العرش)، والزمن هو مما تحت العرش. ومن هنا يمكن فهم حقيقة التمييز بين "الزمن" الفاني "والخلود" الباقي، فكيف لما هو فان أن يطبق قوانينه على ما هو خالد. وبكلمات أخرى كيف لهذا الزمن الذي تحدده قوانين عالمنا الفاني أن يحيط بخالقه الباقي سبحانه؟؟؟

ولكن إذا كان الزمن يفنى ويموت، فما هو "اللازمن"، أو بمعنى آخر: ما هو الخلود إذن؟ تبرز فرضية في هذا الإطار تتلخص بتعريف "الزمن" كفرد في عائلة، تماما كما أن الكون كله مبني على وجود عائلات لكل الكائنات، ومثالها عائلة المكان (الماء والهواء والتراب والنار)، فبالمنطق ما الذي يمنع من وجود "عائلة" واسعة ينتمي اليها الزمن تبدأ من الزمن الذي نعرفه (ولا نعرف كنهه) وتنتهي بصورة متطورة للزمن أو اللازمن تدعى "الخلود"؟ ما الذي يمنع من وجود صور فريدة للزمن متطورة بطبيعتها بحيث لا تكون مشابهة لطبيعة زماننا المحدودة بعناصر حسية فانية؟ فالزمن هو مقياس لنا لمحدوديتنا إذ ندرك الأمور المعدودة، ولا نفهم غير المعدود كالصفر واللانهاية (الخلود).

ولذلك فمن أبرز خصائص زمننا الذي نعرفه أنه "نسبي" يطول بفراق حبيب ويقصر بلحظات سعادة. ومن ذلك أن هذا الزمن الدنيوي للحقب الإنسانية يؤول إلى التناقص يوم القيامة، (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ؟ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) ـ سورة المؤمنون). فكل الموتى، من أول ميت من عهد آدم قبل ملايين السنين إلى قيام الساعة، يظن أن الزمن في الدنيا قد تقلص إلى يوم أو أقل من يوم؟؟ معنى ذلك أن هذه المسطرة القياسية ليست حقيقية بمعنى أنها نسبية مؤقتة لهذا العالم وتعتمد قراءتها على مجموعة مقياسية غير موضوعية كالحالة النفسية التي تطول الزمن أو تقصره إلى غير ذلك أو يتناسب عكسيا مع السرعة ويقترب من الصفر ويتجمد إذا اقتربنا من سرعة الضوء كما ذهب اليه آينشتين في نظرية النسبية. وهذا كله يدعم الفرضية بأن الزمن في عالمنا محدود لعالمنا فقط ولا يمتد لأبعد من هذا العالم.

والتساؤل الذي يعنينا بعد كل هذه المقاربات الأساسية هو: كيف نظر المعمار للزمن وما هو تأثير هذه النظرة في العمارة كآلية وكناتج؟ الإجابة هي أن غالب الدراسات والنظرات للزمن انطلقت من مفهوم الزمن "كفترات وحقب جامدة"، لا كمعطى قياسي حركي ومستقل يرمي بظلاله "كنهر زمني" ممتد يجري من الماضي باتجاه الحاضر والمستقبل. ونظرت للعمارة "كطرز معمارية" تميزت كل منها عن غيرها بالتقادم وبما تحمله كل فترة دون الأخرى. أما النظرة للزمن "كمعطى حركي" فندرت الدراسات التي أولتها ما تستحق من الاهتمام، بيد أن المعمار المسلم قد التفت إليها لماما إذ أدرك علاقة الزمن "كمسطرة قياسية" بما حولها من "أدوات حسية مصاحبة" تصنعها فدخلت هذه الأدوات جميعها "وكآلية" لصنع الزمن الأرضي في عمارته. فقد التفت لأهمية الشمس–كالاغريق والرومان والفراعنة والهند من قبل ـ في تحديد الزمن وبرع المعمار المسلم بخاصة في إدراك هذه العلاقة من الظل فابتكر "المزولة" الشمسية التي تحسب ساعات النهار بدلالة إسقاط حركة الشمس والظل من جسم عمودي على سطح مقعر. وليس هذا فحسب بل شكلت حركة الكواكب والنجوم نقاطا مرجعية مهمة في "الحدث" المعمارية كآلية إفراز نواتج اجتماعية وأنتجت مآثر عمرانية كملوية سامراء وجامع ابن طولون بالإضافة إلى دورها في التخطيط الحضري في بعض عناصر عمرانية في المدينة العربية، وللحديث بقية...■

مزاول شمسية من العمارة الهندية

■ ما الذي يمنع من وجود صور فريدة للزمن متطورة بطبيعتها بحيث لا تكون مشابهة لطبيعة زماننا المحدودة بعناصر حسية فانية؟